ثقافة الشباب في ضوء النموذج التنموي الجديد؛
بين التأثيل والتنزيل

الباحث محمد الخواتري
إطار بالمديرية الجهوية لقطاع الشباب بجهة بني ملال خنيفرة
طالب باحث في الفكر الإسلامي بسلك الدكتوراه بجامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال
المغرب

تقديـــــم

إن نهضة الشعوب وتقدم الحضارات عبر التاريخ الإنساني لم يكن مرتبطا بما تملكه هذه الشعوب من صناعات في ميادين مختلفة، أو بحيازتها على وسائل التمكن والظهور الحضاري المادية فحسب، لم يكن للقوة العسكرية وحدها أو للتطور الاقتصادي والصناعي وحده الأثر في ازدهارها وتقدمها ورقيها وإن كان كل هذا ضرورة من ضرورات التحضر والمدنية لكنه ليس كل الضرورات.

ومن أكثر وأهم المجالات التي تحضى بأهمية بالغة في صيرورة تَحَضُّر الشعوب ونهضتها المجال الثقافي، إن الثقافة بأبعادها المختلفة هي الوعاء المتجانس والناضح بتقاليد المجتمعات وعاداتها، والمتحدث عن قيمها، وأخلاقها، والحافظ الأمين لهوية هذه المجتمعات وخصوصيتها التاريخية.

والثقافة في أبسط تعريفتها وأقدمها وأكثرها ذيوعا هو تعريف الأنتروبولجي الإنجليزي إدوارد تايلور الذي ذهب فيه إلى القول بأن: "الثقافة هي ذلك الكل المركب المشتمل على المعارف، والمعتقدات، والفن، والقانون، والأخلاق، والتقاليد، وكل القابليات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع"[1]

وهذا التعريف الذي قال به تايلور هو الذي اعتمدته اليونيسكو حيث عرَّفت المنظمة في مؤتمرها الخاص بالثقافة: بأنها ـــ أي الثقافة ـ بمعناها الواسع يمكن أن ينظر إليها على أنها جميع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه أو فئة اجتماعية بعينها وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات.

والحديث في مقالنا هذا هو حديث عن أوجه التعبير الثقافي ومكوناته المتضمِنة للسمات التي ذكرها تايلور في تعريفه، من مسرح، وأدب، وشعر، وسينيما، وفكر مما يساهم في "نقل الموروث الثقافي عبر الأجيال للمحافظة عليه، وتأمين استمراره والتعريف به على الصعيد المحلي والدولي، وكذا نشر الوعي الثقافي بين جميع فئات المجتمع"[2]

وسياق حديثنا في هذه الورقة البحثية أيضا هو عن التجربة الثقافية المغربية باعتبار خصوصيتها، وباعتبار ما يمكن أن تلعبه الثقافة في المسار التنموي لبلادنا، وعلى اعتبار ما يتميز به المغرب من عمقٍ وتجذرٍ وأصالة في موروثه الثقافي ونظرة متفاعلة تقبل التنوع والاختلاف وتستفيد منه في ربط جسور الحوار والتواصل مع الحضارات المجاورة.

وعن هذه النظرة يقول الحسن السائح: "للمغربي نظرة شمولية للحياة فلهذا يميل تفكيره إلى النظرة العامة الموضوعية كما أن ثقافته مطبوعة بالتركيب والتحليل، مما يساعده على فهم ما يَرِدُ عليه من تيارات ثقافية مختلفة ولذلك وجد في الحضارة الفينيقية شخصيته اللغوية والأخلاقية، وفي قرطاج استكمل نضجه السياسي ومن ذلك التاريخ وهو يبحث عن وسائل الاستكمال الذاتي

فوجد في الإسلام عقيدة تلائم نظريته للحياة، وتمذهب بالمالكية بصفة جماعية وتمذهب بالتصوف الجنيدي لا الحلاجي لأن الأول تصوف بسيط سني أما الثاني فله أصله فلسفي يوناني، وعرف من المذاهب الإسلامية المذهب الخارجي ليستكمل وحدته "[3]

إن المغرب بما يزخر به من ثروات مادية، ومن تراث حضـــاري بقيمته اللامادية الضـــاربة بعراقتها في التاريخ، وكذا بتنوع روافد مكوناته المجتمعية؛ من حيث اللغة والتاريخ والدين في تعايش وتســـاكن وانســـجامٍ تام؛ كل هذه المميزات تجعل من ســـؤال التنمية والإصلاح والإقلاع سؤالا واقعيا لما لدى بلادنا من المقومات والخصائص ما يؤهلها لخوض هذا الرهان: رهان التنمية.

وقد انخرط المغرب منذ فجر الاســتقلال في دينامية الإصــلاح والتنمية وفق مخططات واســتراتيجيات تخضــع لتقلبات الظروف الداخلية والخارجية، منها ما أعطى أكله ونجح في خلق التنمية المرجوة ومن هذه المخططات ما احتاج إلى إعادة تدارك وتصـــحيح للخلل من أجل إقلاع تنموي يرقى بالمملكة المغربية لمصاف الدول المتقدمة.

وقد تنوعت مداخل الإصــلاح والتنمية على امتداد تاريخ المغرب، والســمة الغالب في كل هذه التجارب هو عدم إيلاء الثقافة مكانتها المعتبرة في المسار التنموي من جهة، ومن جهة أخرى عدم تشجيع الشباب باعتباره ركيزة المجتمع، ومرتكز كل عملية تنمية من أجل الاهتمام بالثقافة وتبنيها وجعلها مقدمة الثورة التنموية المنشودة ووقودها.

من خلال هذه الورقة البحثية التي اخترنا لها كعنوان ثقافة الشــباب على ضــوء النموذج التنموي الجديد: بين التأثيل والتنزيل، نحاول الإجابة على الإشـكالية الرئيسـية للموضـوع والمتحدد في التسـاؤل التالي: إلى أي حد يمكن أن يسـهم اهتمام الوعي الثقافي عند الشباب المغربي في إنجاح المسلسل التنموي في بلادنا؟

وعن هذه الإشكالية تتولد العديد من الأسئلة من قبيل أهمية الثقافة في التنمية المجتمعية، وعن مكانة الثقافة في النموذج التنموي الجديد بالمغرب وكيف يتحول المثقف من دائرة التنشـيط وتحريك العمل بالمؤسـسـات الثقافية إلى أدوارٍ أكثر فاعلية وجدوى؟ وعن مدى حضور الوعي الثقافي في اهتمامات الشباب وكيف يمكن أن نصالح الشباب بالثقافة وما الدور المنوط بالمؤسسات الشبابية في هذه المصالحة؟ وما حدود التقارب والتلاقي بين ما هو شبابي وثقافي في مجتمعنا؟

نناقش إشــكالات هذه الورقة اســتنادا إلى كتابات لا تعدو في أغلبها عن كونها مقالات على المواقع الألكترونية، وكذا لتقارير وأبحاث صادرة عن الهيئات التي شاركت في إعداد النموذج التنموي الجديد. وهذا يرجع إلى كون الكتابة المؤسسة في هذا الموضوع لم تتبلور بشكل جلي بعدُ على الساحة الفكرية بالمغرب.

المحور الأول: أهمية الثقافة في الدينامية التنموية للمجتمعات.

من المفاهيم التي ارتبطت بمجتمعات دول العالم النامي في مرحلة ما بعد الاســـتقلال مفهوم "التنمية الثقافية" ويراد بإطلاق المفهوم أن يتحول الفعل الثقافي من فعل ينحصـر تأثيره على الأفراد ضـمن دائرة محدودة من الكتاب والمفكرين والشـعراء، إلى دائرة أوسـع هي المجتمع بحيث يصـبح للثقافة بما هي فن وأخلاق ومعارف وعادات وتقاليد دورا في خلق سـبل جديدة للتنمية المسـتدامة ومحاربة العديد من الظواهر المجتمعية من قبيل الفقر والهشاشة وغيرها من الظواهر المعيقة للإقلاع المجتمعي.

وشـكل موضـوع ارتباط الفعل الثقافي بالتنمية المجتمعية قضـية شـغلت العديد من الباحثين والمفكرين، واستأثرت باهتمام العديد من المنظمات والهيئات الدولية كهيئة الأمم المتحدة واليونيسكو، هذه الأخيرة وفي إحدى تقاريرها الدورية جعلت من الثقافة عاملا أساسية في معادلة التنمية المجتمعية؛ يقول التقرير: "فالثقافة عنصر أساسي من عناصر التنمية المستدامة؛ وأنها تمثل مصدرا للهوية

والابتكار والإبداع بالنسبة للفرد والمجتمع؛ وأنها عامل هام في بناء الإدماج المجتمعي، والقضاء على الفقر، وتوفير شروط النمو الاقتصادي، وتولي البلدان زمام عمليات التنمية"[4]

وليس أدل على دور الثقافة في نهضة الشعوب ما شهدته أوروبا من ثورة حضارية هائلة، وهي ثورة قامت منذ نهاية القرن السادس عشر على العلم والمعرفة والتخلص من قيود التخلف والجهل والرجعية من جهة، ومن جهة فإن أوروبا استدعت تراثها اليوناني والروماني ووظفته كوقود ومحرك لهذا الانبعاث، وإلى هذا العنصر من عوامل النهضة الأوروبية يشير إدغار موران بقوله: "والنهضة هي أيضا عصر تطور النزعات الإنسية، وتطور ثقافة تقوم على إدماج الثقافة اليونانية واللاتينية. في ذلك العصر، تميز العديد من المفكرين بالعقل الموسوعي حيث كانوا يتقنون العربية والعبرية واليونانية واللاتينية"[5]

ويضيف المفكر جيري بروتون في هذا السياق: "كانت الاكتشافات التي توصل إليها مستكشفون ومفكرون مثل كولومبوس وكوبرنيكوس وجاليليو تمضي جنبا إلى جنب مع تعريفات فلسفية أكثر للفردية ...، كان عصر النهضة يمثل حالة ديمقراطية تقدمية تحتفي ببعض الفضائل العظيمة مثل العقل والحقيقة والفن والجمال"[6] وهذه الفضائل والقيم في حقيقتها هي جوهر ثقافة المجتمعات وصورتها ومكونها.

ومن التجارب الحية والمبرزة لمكانة الثقافة في صناعة النهضة الحضارية والدفع بعجلة التنمية المجتمعية تجربة اليابان، هذه الدولة التي تعرضت لما يمكن تسميته إبادة حقيقية تمثلت في تعرضها لأعنف وأفتك قصف نووي في التاريخ، تعرضت هيروشيما اليابانية في السادس غشت 1945 لقصف نووي أودى بحياة 140 ألف إنسان، تلاه بعد أيام قصف آخر لنكازاكي خلف 70 ألف قتيل.

خسائر بشرية فادحة وتدمير أفدح لدولة كانت تعاني في الأصل من انعدام الموارد الاقتصادية والطاقية وانعدام المنافذ البحرية التي ممكن أن تخفف من وطئة الأزمة.

لكن اليابان صنعت الفرق وأعادت معه صناعة التاريخ، وعادت من بعيد لتجد لها موضع قدم معتبر بين دول العالم متقدمة بصناعتها، متجاوزة أزمتها ونكبتها الإنسانية لتصبح واحدة من كبريات الاقتصاديات في العالم ومركزا من مراكز التصنيع.

يجمع المختصون أن نهضة اليابان الحضارية ارتكزت بدء وختاما على المعطى الثقافي وعلى الهوية والخصوصية المحلية مع جعل اللغة اليابانية الأم اللغة الأولى في التعليم، والصناعة، والاقتصاد، والإعلام، يقول واحد من المفكرين المغاربة الذين عايشوا نهضة اليابان بل وشاركوا في التأسيس لجزء من هذه النهضة وهو البروفيسور المهدي المنجرة، يقول المنجرة:

"واليابان تفهم أن المعاصرة أو الحداثة ليست هي الغربة ــ يقصد التشبه بالحضارة الغربية ــ والواضح أن اليابان برهن أنه لم يقلد الغرب في حضارته. بل هناك إنتاج ذاتي ومحلي، مبني على حضارة آلاف السنين، مبني على المحافظة على اللغة اليابانية، مبني على محاربة الأمية ومحوها قبل بداية القرن . يقصد القرن 21 . مبني على القيم"[7]

هكذا يتضح بشكل جلي أن المعطى الثقافي يشكل عنصرا من عناصر التنمية المجتمعية، يتبين ذلك من خلال التجربتين الأوروبية واليابانية ويتبين في العديد من تجارب المجتمعات التي انطلقت من ثقافتها وهويتها الحضارية لتصنع المجد.

إنه "ولما كان الفرد قادرا على التأثير في المجتمع بثلاث مؤثرات: الفكر، والعمل، والمال؛ وجب توجيه الثقافة، وتوجيه العمل، وتوجيه رأس المال"[8] توجيه يخدم النهضة باعتبارها حراكا اجتماعيا هو مقدمة للفاعلية الحضارية، ويخدم التنمية باعتبار ارتباطها بالاقتصاد ومؤشراته.

إن الإقلاع الحضاري الذي لا يراعي كل الجوانب التي تدخل في صلب تحقيق التنمية ومن ضمنها الجانب الثقافي، لا يمكن أن يتحقق من خلاله المرجو منها. إن الشعوب التي اعتبرت تراثها الثقافي وموروثها الحضاري قمينة بالوصول إلى ذرى المجد والتقدم والإبداع.

المحور الثاني: دور الثقافة في النموذج التنموي الجديد بين التنظير والتنزيل.

اعتمد المغرب منذ فجر الاستقلال العديد من الخطط والمشاريع الرامية إلى تحقيق الإقلاع التنموي والشهود الحضاري ضمن تصور يهدف تحقيق التنمية المجتمعية المستدامة للفرد والمجموع ويسهم في الرقي بالمستوى الاجتماعي للمجتمع المغربي.

يعد مشروع النموذج التنموي من أحدث الرؤى التنموية التحديثية بالمغرب ومن خلالها تم تدارك العديد من النقائص والهفوات التي اعترت المبادرات السابقة وبخاصة المبادرة الوطنية للتنمية البشرية. وقد بدأ العمل الفعلي على هذا الورش التنموي في نونبر 2019 بعد أن عين الملك محمد السادس لجنة خاصة على رأسها السيد شكيب بنموسى وضمت 35 عضوا من مسارات أكاديمية مختلفة، وكلفها بالعمل على مشروع النموذج التنموي الجديد في إطار منظور إستراتيجي شامل ومندمج.

عملت اللجنة على امتداد سنتين من تأسيسها على فتح جسور اللقاء، وفتح نقاط استماع على جميع المتدخلين؛ السياسيين، والفرقاء الاجتماعيين، وشرائح المجتمع المختلفة، وذلك قصد تجميع القدر الأكبر من الأراء لبلورة تصور مشاريع ومقترحات لصوغ نموذج تنموي متكامل.

المشروع النموذجي الواعد ضم العديد من الأوراش والاهتمامات في مختلف المجالات التي يمكن أن تكون رافعة للتنمية، ومن هذه المجالات المجال الثقافي، وهذا الاتجاه المهتم بالثقافة عبرت عنه الإرادة الملكية بشكل مباشر في غير ما مرة منها ما جاء في إحدى الخطب الملكية: "ندعو إلى إيلاء الثقافة، بمفهومها الحضاري، المكانة اللائقة بها، باعتبارها ركنا أساسيا في توجهنا الاستراتيجي الرامي لتمكين الشباب من مشروع ثقافي هادف، في مناخ من الحرية المشجع على الإبداع والابتكار، المجسد للتنوع، والتفاعل بين الثقافات الجهوية والوطنية والكونية"[9]

وفي تقرير للمجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي والذي يعد نواة اللجنة الخاصة بإعداد النموذج التنموي الجديد، يعتبر أن "الثقافة الوطنية، في مكوناتها المادية والمؤسسية وفي أبعادها غير المادية والرمزية، التقليدية والعصرية، تختزن رأسمالا غنيا ومتنوعا يفترض وعيا سياسيا ومؤسسيا يعمل على استثماره وتثمينه، وتجاوز عوامل الهدر الذي تتهدده، سواء كان تراثا أو إبداعا"[10]

ويضيف ذات التقرير: "الأمر ليس ترفا أو موضوعا خطابيا، وإنما يتعلق بمكونات الهوية في تعددها وتنوعها اللغوي والجهوي والوطني، وبذاكرة مشتركة وبقيم يتعين اعتبارها في البرامج والمضامين التي يتعين استحضارها في كل السياسات العمومية، ولاسيما في مجالات اقتصاديات الثقافة"[11]

والحق أن الأمر ليس ترفا ولا موضوعا زائدا فائضا عن الحاجة حين نتحدث عن دور الثقافة في التنمية، إننا بصدد الحديث عن معركة الوعي التي لا يمكن أن تُكســـبَ دون الارتكاز على المرتكز الثقافي لأهميته في تأطير الوعي الجمعي للمجتمع، وهو الوعي الذي مارسته الثقافة في دوائر ضيقة شملت النخب المثقفة دون غيرها.

وتتأكد هذه المكانة والدور الريادي للثقافة في النموذج التنموي إذن من خلال التقرير الختامي الذي قدمته اللجنة الخاصـــة بإعداده للملك، في مقدمة التقرير تأكيد على دور الرافد الثقافي بإزاء غيره من الروافد الأخرى في تحقيق التنمية المنشـــودة، جاء في تمهيد التقرير ما يلي: "إن الأمة المغربية تراهن على تحقيق إقلاع حضـــاري ينبني على اســـتثمار كافة مقومات التنمية في أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، وذلك ضمن رؤية مستقبلية طموحة، ترتكز على الشعور بالانتماء إلى نفس الوطن"[12]

يعود التقرير ليشير إلى انتظارات المغاربة في المجال الثقافي ضمن اللقاءات التي أجرتها اللجنة في مدة إعدادها للتقرير مع مختلف مكونات المجتمع حيث خلص التقرير إلى التالي:

"في مجال الثقافة، تطالب الفئات الشابة، بشكل خاص، بتثمين ومضاعفة الفضاءات المخصصة للتعبير الثقافي والفني والبنيات التحتية والأنشطة الرياضية"[13]

ويضيف التقرير أيضا: "وتعتبر الثقافة المتاحة للجميع ليس فحسب مصدرا لتنمية قدرات الفرد، بل أيضا شرطا ضروريا لبناء مجتمع ديمقراطي وعيش مشـــترك متناســـب مع ثراء المغرب وتنوعه الثقافي. كما أكد المقاولون في المجال الثقافي الذين تم الانصـــات إليهم على أن الثقافة يمكن أن تصبح قطاعا مهما لخلق فرص الشغل والثروة"[14]

هذه النصوص وغيرها مما جاء في هذا التقرير عن اللجنة المكلفة بصياغة النموذج التنموي وغيرها من التقارير الصادرة في ذات السـياق، كلها تتضـافر لتشـكل الأرضـية والمنطلق في باب التنظير للثقافة وإيلائها المكانة المعتبرة ضـمن النسـق التنموي المقترح والتأسيس لتصور جديد يرى رسملة الثقافة شكلا من أشكال جلب الثروة والاستثمار.

بيد أن نقائص عدة شابت المقاربة الثقافية في هذا النموذج الواعد، من أبرزها هو المساحة التي شغلها السؤال الثقافي في التقرير وهي لا تعدو أن تكون إشارة في سياق الحديث ضمن المحور الثاني من القسم الأول والمتعلق بالمرتكزات وعناصر الاستشراف في أفق 2035 وهي الفقرة التي أشرنا إليها أعلاه.

هذا المعطى يجعل المتتبع يقف على المساحة التي سيشغلها الجانب الثقافي في حيز تنزيل هذا المشروع في الواقع، وأيضا مكانته في اهتمامات وعمل الحكومات المكلفة بتنزيل هذا المشروع

إن اللجنة وهي بصدد صوغ هذا التقرير لم تنفتح بما يكفي على النخب المثقفة باعتبارها صاحبة الخبرة والتجربة في هذا المجال وخاصة على مستوى التنظير.

إن انفتاح اللجنة على الجسم الثقافي والفكري كان سيكون له الأثر المهم في صياغة تصور واضح يثمر حركية ثقافية تساهم في محو النظرة التي تطبع رؤية المجتمع للثقافة باعتبارها شـــأنا زائدا عن الحاجة وترفا من الترف المجتمعي، وترتقي بها إلى المســـاهمة في التنمية المستدامة.

إن زاوية نظر المفكر والمثقف تتسم بشمولية وبعد نظر أوسع واستشراف لرهانات المستقبل وآليات كسب هذه الرهانات، " فللكاتب رؤية خاصة تختلفُ تماما عن رؤية السياسي والفاعل الاقتصادي، لأن عينِ الكاتب والمثقف والفنان لا ترى ما يراهُ الآخر عبرَ رؤيته التشريحية النقدية التي تتعمقُ في مكامن الخلل في القضايا المجتمعية وتغوص عميقا في أمور أكثر تعقيداً من الأمور المركب والقضايا التي يعج بها المجتمع وتقبع في أعماقه. وهو أمرٌ لا يمكنُ أن يتجاهلهُ قارئ أو عاشق كتاب من خلال القضايا الرسائل التي يحاول الكتاب إيصالها عن طريق الإبداع أو عن طريق مقالات فكرية مباشرة."[15]

إن حضور رؤية أصحاب الاختصاص ضمن مقاربة اللجنة الخاصة بالنموذج التنموي كان سيكون له أثره في وضع استراتيجيات أكثر نجاعة وفاعلية في مقاربة المسألة الثقافية ووضعها ضمن سكتها الصحيحة القادرة على جعل الثقافة محركا فعالا من محركات التنمية دون أن تستحيل الثقافة إلى مجرد رسمال من رساميل الاقتصاد والتجارة ضمن نسق العولمة المتوحش ويبقي على قيمتها الحضارية.

عموما فإن النموذج التنموي الجديد قد أقام اعتبارا للعنصر الثقافي ضمن المقاربة التنموية الشمولية، ولعل النقص الذي شاب التقرير يمكن أن يتم تداركه في مراحل التنزيل وبخاصة إشراك النخبة المثقفة والشباب في العملية ككل.

والشباب له المكانة المعتبرة في علاقته بالثقافة تأثرا وتأثيرا مع ما تتميز به هذه المرحلة العمرية من خصائص متى ما وضفت في المجال الثقافي سيكون له أثرها في تحقيق نهضة وتقدم المجتمع.

المحور الثالث: ثقافة الشباب ودورها في تحقيق انتظارات النموذج التنموي

الشباب عمدة الشعوب وعدتها ووقود قاطرة نهضتها وتقدمها، وما ذلك إلا لما تتميز به هذه الشريحة من مقومات الخلق والإبداع ووسائل صناعة القرار ومن خصائص ذاتية تتمثل في المعرفة والقوة وقابلية اكتساب المهارات والخبرات العلمية والعملية وتسخيرها خدمة للمجتمع.

تفوق نسبة الشباب في المغرب المتاروحة أعمارهم ما بين 25 و45 يمثل نسبة 46.32% وهو رقم له قيمته إذا اعتبرنا نسبة المتراوحة أعمارهم ما بين 14 و24 سنة تمثل 43.1%، نسبة تدل أن العشرية المقبلة ستعرف ارتفاع في الشريحة العمرية للشباب.

هذه النسب تجعل الباحث يطرح العديد من التساؤلات حول مدى تفاعل السياسات العمومية مع متطلبات الساكنة الشابة وانتظاراتها وبخاصة ما يتعلق بالمجال الثقافي وهو ما أنتج وفق تقرير المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي "خصاصا ملموسا في الثقافة والمعرفة، بالمعنى العصري الإبداعي، وانفصاما بين الخطاب الرسمي حول الثقافة وبين الانشغالات الواقعية للشباب المغربي حتى انعكس هذا العجز على الأسرة، والمدرسة، والجامعة، والمجال العام"[16]

وهو ما انعكس بشكل أكثر وضوحا وجلاء في الروافد والموجهات التي أضحت تؤطر شبابنا المغربي وتحكم ميولاته الثقافية، مشدودا لما يروج في العالم المتطور من قيم ومعتقدات وتصورات مبنية على الثقافة الاستهلاكية الجاهزة التي ظهرت في بعض دول أوروبا مع خمسينيات القرن الماضي وهي ثقافة تنهل من النزعة المادية المتحرر أو ما يسمى بثقافة الشباب.

نقصد بثقافة الشباب الطريقة أو الطرق المتبعة في التعامل مع الممارسات اليومية من قيم وأنشطة يتبناها الشباب وتكون رائدهم في التعامل مع التجارب المشتركة بين الشباب وباقي الشرائح وطرق فهمها، وعليه يمكن النظر لثقافة الشباب "أنها يمكن أن تصف

نموذجا معينا من المعتقدات والقيم والرموز والممارسات التي يتبعها ويشترك فيها عدد من الشباب...، وعليه فلثقافة الشباب وفق هذا المنحى وظيفة ذات أهمية بالغة هي وظيفة حل المشكلات"[17]

إن دينامية التطور والعصرنة التي يعرفها المجتمع المغربي، وانفتاحه على العالم وما يموج به من ثقافات وأفكار لم تكن مؤلوفة من قبل، أنتجت جيلا من الشباب متشبعا بقيمِ وثقافات جديدة قد تبدو في بعض الأحيان غريبة على خصوصية المجتمع وهويته ما يُحدِثُ في كثير من الأحيان صراعا وتصادما بين الأجيال.

وهذا بالضبط ما حصل في بعض مدن المغرب مع بداية الألفية الثالثة من أحداث مؤلمة تَنِم عن نزعة التطرف التي حكمت شريحة من الشباب والتي أدت لحدث 16 ماي الإجرامي، بالإضافة إلى بروز ظواهر فنية شبابية تتصادم مع الذوق المجتمعي العام أو ما سماه تقرير المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي ب "الثقافة المضادة".

هذه الأنماط الغريبة تستدعي " الانتباه للتحولات العميقة التي يعيشها المجتمع المغربي، وإلى إعادة التفكير في موضوعات القيم وثقافة الشباب"[18]

إن فهم طبيعة هذه الثقافات الشبابية وهي في أغلبها واردة، ومعرفة كيفية التعامل معها في أفق تبيئتها وتوطينها وصبغها بالصبغة المحلية كل هذا من دون شك سيساهم في انخراط الشباب في الفعل الثقافي والاعتزاز بالموروث الوطني باعتباره الأصل والمنطلق لفهم باقي الثقافات.

ومن منطلق أن الشباب المغربي لا يخلو من موجهات ثقافية تقود وتحدد اختيارته في محيطه الاجتماعي وهو ما يستدعي توجيه هذه الاختيارات، من هذا المنطلق إذن نتسائل عن وجود تصور متكامل لإدماج الشباب في المشروع التنموي من منطلق ثقافي.

الجواب عن هذا التساؤل يضعنا في مواجهة العديد من المؤسسات المرتبطة بقضيتي الشباب والثقافة وفي مقدمة هذه المؤسسات مؤسسات التعليم من الابتدائي وحتى الجامعي والمؤسسات المحتضنة للفعل الثقافي وبخاصة دور الشباب ودور الثقافة بالمغرب.

فعلى المستوى التعليمي يجب أن تكون المؤسسات التعليمية باختلاف مراحلها مشتلا للحس الثقافي عند المتعلم، وبخاصة خلال فترة المراهقة والشباب حيث تتفتح مدارك الشاب على اكتساب المعارف والمهارات فيكون "من الضروي أن يَدْرَجَ المتعلم على أشياء أخرى أساسية في بلوغ التوازن، ومنها التربية الجمالية، من إحساس بجمال الطبيعة، والموسيقى، ومنها الجوانب الروحية أو فلنقل الضمير"[19]

وهذه المداخل التربوية على اختلافها وتفاوت أهميتها داخل المنظومة التربوية التعليمية تفتل بمجموعها في حبل التنشئة الثقافية للشباب وتنمي في وجدانهم الحس الذوقي الجمالي الذي لا يمكن أن يترسخ من دون عدة مداخل من بينها المدخل الثقافي.

"لا يجدر بنا الاكتفاء بالتشخيص وحسب، يلزمنا اقتراح بدائل تهدف إلى تغيير ما تتعثر فيه منظومة التربية والتعليم. ولتكن البداية بتربية الإنسان، عماد المجتمع وروحه. ونرى أن التربية الجمالية جزء مهم في هذه تربية المتعلم، كيما نسلك إلى ذوقه وحسه الجمالي لتتحول نظرته إلى الأعمال الإبداعية بوصفها مساحات فنية عذراء تستهويه لخوض مغامرة الاكتشاف"[20]

على المستوى المؤسساتي وبالخصوص مؤسسات دور الشباب ودور الثقافة، فلا شك أن أهمية هذه المؤسسات تبقى بالغة ومعتبرة على مستوى التأطير والتوجيه الثقافي عند الشباب. وهنا يطرح السؤال عن قيمة العرض التربوي والثقافي والاجتماعي لهذه

المؤسسات باعتبار أنها محضنا لحركية الشباب، السؤال يطرح أيضا عن تكافئ الفرص والمساواة في ولوج هذه الفضاءات وبخاصة الشباب في وضعية إعاقة والشباب في وضعية هشة.

لقد ظلت الوظيفة النمطية لهذه المؤسسات ظلت لزمن حبيسة أنشطة روتينية تقدم لروادها محتوى الغالب عليه التكرار والموسمية وتغيب عنه اللمسات الإبداعية التي تجعل من مؤسسة دار الشباب والثقافة منشئا للفعل الثقافي ومحفزا عليه.

والتجارب من الزمن القريب خير شاهد وخير مؤكد على ما قدمته دور الشباب في السبعينيات والثمانينيات في المجال الثقافي، وكيف كانت دار الشباب وبخاصة في المدن الكبرى مدرسة لتربية وتهذيب الذائقة الجمالية والفكر وصقل المواهب وتنشئتها، والتجربة الغيوانية كظاهرة ثقافية فنية ألهمت العديد من الشباب على مدى عقود خير مثال على ذلك، حيث انطلقت التجربة المتفردة من دور الشباب بالدار البيضاء وخاصة دار الشباب الحي المحمدي.

إن تضافر جهود هذه المؤسسات إضافة إلى مؤسسة الإعلام، وخاصة وسائل التواصل الاجتماعي الحديث وما أصبحت تلعبه من دور متقدم في صناعة الوعي الثقافي، إن تضافر هذه الجهود سيكون له أثره في التعبئة الثقافية للشباب تعبئة سليمة تدفع باندماج سلس وفاعل للشباب في العملية التنموية.

اعتبار وسائل التواصل الحديثة واستثمارها في هذه المقاربة الثقافية الدامجة للشباب في الفعل التنموي، سيكون له أيضا أهميته في تحريك هذا الفعل وتطوره خدمة للشباب والمجتمع، إذ لم تعد تخفى المكانة المعتبرة لوسائل التواصل الاجتماعي في صناعة المحتوى الثقافي وترويجه، وهو ما يسهل وصول المادة الثقافية بمختلف أصنافها للشباب وييسر تداولها، اتضح ذلك بشكل جلي في جائحة كورونا وما تلاها من تداعيات إغلاق المرافق العمومية ومنها مؤسسات الشباب والثقافة.

في العلاقة بوسائل الاتصال الحديثة وارتباطها بالثقافة تبرز الضرورة الملحة لاستغلال هذه الوسائل أولا في تطوير هذه الدينامية من جهة، ومن جهة لتشجيع فرص الشغل والكسب وتنمية موراد الشباب عن طريق التجارة الإلكترونية.

والأهم من وجهة نظري في ارتباط ثقافة الشباب بالتنمية المستدامة، هو تشجيع المقاولات والمؤسسات على الاستثمار في المجال الثقافي باعتباره مجالا خصبا ومساحة بكر في خلق فرص العمل ومحاربة البطالة، هذا بالطبع مع ضرورة المحافظة على قيمة الثقافة المعنوية الحضارية كما أسلفنا.

ولن يتأتى ذلك إلا ب"بلورة استراتيجية وطنية تفتح مسالك وظيفية بين الممارسة الثقافية والتشغيل من خلال تطوير عروض جديدة ومغرية للشباب في التكوين المهني، ومن خلال فتح إجازات متخصصة تستجيب لمقتضى تكوين الأطر والموارد البشرية القادرة على تحقيق هذه المهمة"[21]

على سبيل الختم:

في هذه الورقة البحثية حاولنا قدر المستطاع مقاربة موضوع ثقافة الشباب في ارتباطها بالنموذج التنموي، موضوع يستمد أهميته وراهنيته من الدينامية والنقاش الدائر حول النموذج التنموي الذي قدمته اللجنة المكلفة بصياغته، وكذا النقاش الدائر بشأن تفعيل توصيات المشروع وبرامجه.

إنه ومن منطلق أهمية الثقافة في حياة الشعوب ونهضتها، ودورها الريادي في التنمية المستدامة وفي محاربة الهشاشة والفقر والبطالة وخاصة في صفوف الشباب، فإن اختيار المغرب للنموذج التنموي والجهود المبذولة لتنزيل توصياته سيكون له أثره الأبلغ في الوصول إلى الأهداف المرجوة إن تم مراعاة جميع مداخل التنمية ومن أهمها المدخل الثقافي في علاقته بالشباب.

والمستقبل في المغرب كما تبين الإحصائيات الرسمية مستقبل سيكون للشباب فيه قدم السبق وسيكون ركيزة المجتمع ونسبته الغالبة وبالتالي فتعليم الشباب وتثقيفه والاهتمام بتربيته الجمالية والذوقية ضرورة أساسية لبناء شخصية شبابية قادرة على الاندماج والمشاركة في مسلسل التطور.

المعول عليه لتحقيق هذه الأهداف هو الرفع من مستوى التشاور والتنسيق بين مستويات وقطاعات ثلاث: قطاع الثقافة باعتباره الراعي والمحتضن للفعل الثقافي، وقطاع التربية والتعليم من منطلق كونه المسؤول عن تربية النشئ وغرس القيم الثقافية في وجدانه، ثم قطاع الشباب لكونه القطاع الوصي على مؤسسات دور الشباب والمراكز النسوي.

التنسيق بين هذه القطاعات سيكون له تأثير على اهتمام الشباب بالشأن الثقافي كمقدمة لاستثمار هذا الاهتمام في خلق دينامية في المجتمع بحيوية شبابه وبإبداعهم المساهم في التطوير والتحديث.

وقبل كل هذا فالموضوع بحاجة إلى إرادة سياسية تجعل من الثقافة الشبابية واجهة للعمل عليها وتطويرا دفعا بعجلة التنمية كما تحدثنا سالفا، فالقرار السياسي كفيل بسد النقص الحاصل في هذا المجال وخاصة في المجال التشريعي.

إن المغرب مطالب بوضع تصور واضح ومسؤول للقضية الثقافية في ارتباطها بالعنصر الشبابي، أخذا بالاعتبار التحولات البنيوية التي يعرفها المجتمع، مع إعادة الاعتبار للثقافة وجعلها من المداخل الأساسية في كل السياسات العمومية وجعلها في عمق بناء المغرب الحديث.

الهوامش:

[1] نقلا عن: عبد الغني عماد، سوسيولوجيا المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، ص 20

[2] نور الدين التباعي، صناعة الثقافة، مجلة آفاق العلوم، العدد 3 2020م، ص21

[3] لحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء المغرب، ط2 1406 هـ 1986م، ص79

[4] الثقافة والتنمية المستدامة، نقلا عن تقرير منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة بتاريخ يوليوز 2014، ص3

[5] إدغار موران، ثقافة أوروبا وبربيتها، ترجمة: محمد الهلالي، دار توبقال للنشر الدار البيضاء المغرب، ص 23 24

[6] جيري بروتون، عصر النهضة، ترجمة: إبراهيم البيلي محروس، مؤسسة هنداوي القاهرة مصر، ط1 2014م، ص15

[7] المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى، مكتبة الشروق للنشر والتوزيع القاهرة مصر، ط1 1995، ص50

[8] محمد شريف مشوح، أثر القيم في نهضة المجتمع، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد 17 العدد 1، ص 409

[9] مقتطف من خطاب العرش بتاريخ 30 يوليوز 2004

[10] تقرير بعنوان: اقتصاديات الثقافة والصادر عن المجلس الاقتصادي والبيئي، إحالة ذاتية رقم 2016/25، ص13

[11] المصدر نفسه، ص 13

[12] التقرير العام للجنة الخاصة المكلفة بصياغة النموذج التنموي الجديد والصادر بتاريخ: أبريل 2021، ص9

[13] لمصدر نفسه، ص 36

[14] المصدر، ص36

[15] عبد الله عبد الله، موقع الثقافة في النموذج التنموي الجديد... قراءة وأسئلة، مقال منشور بجريدة هسبريس الإلكترونية، رابط المقال:
https://cutt.us/JIFvd

[16] تقرير بعنوان: إدماج الشباب عن طريق الثقافة والصادر عن المجلس الاقتصادي والبيئي، إحالة ذاتية رقم 2012/3، ص 13

[17] عبد العالي دبلة، ثقافة الشباب بين التأطير المعرفي والواقع الاجتماعي، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية الصادرة عن جامعة الشهيد حمة لخضر . الجزائر، العدد 111 يوليوز 2015، ص 126

[18] تقرير بعنوان: إدماج الشباب عن طريق الثقافة والصادر عن المجلس الاقتصادي والبيئي، إحالة ذاتية رقم 2012/3، ص21

[19] حسن أوريد، من أجل ثورة ثقافية بالمغرب، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط1 2018، ص140

[20] عادل ضباغ، التربية الجمالية والإبداع الأدبي مقاربة ديداكتيكية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع إربد الأردن، ط1 2019م، ص 18

[21] تقرير بعنوان: إدماج الشباب عن طريق الثقافة والصادر عن المجلس الاقتصادي والبيئي، إحالة ذاتية رقم 2012/3، ص45